أمثلة من الترجمة

BarbaraWarning

Kindheit in Trümmern

Ravensburger Buchverlag, Ravensburg 2015
ISBN 978–3–4735–5375–4

صفحات 6–7 & 12–19 & 42–53

Barbara Warning

طفولة وسط الأنقاض

ترجمة: محمود حسنين

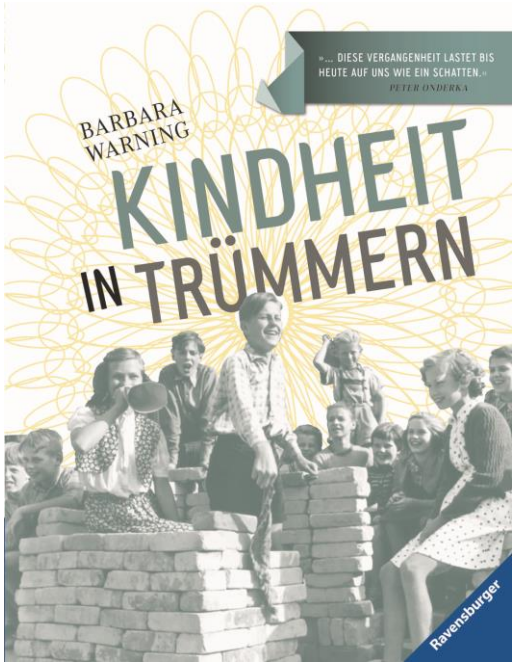

© 2016 Litrix.de

© 2016 Litrix.de

صفحات 6-7

(1)

"نحن آخر من بقي. اسألونا."
تقديم باربارا فارنينج

قبل سبعين سنة انتهت الحرب العالمية الثانية في أوروبا. خلّفت الحرب التي بدأها الألمان 55 مليون قتيلًا في شتى أنحاء العالم، وستة ملايين قتلى من اليهود، وملايين الجرحى والمتضررين نفسيًّا، وملايين المشردين وأنقاض قارة. سبعون سنة فترة طويلة. وها هو الجيل الثالث بعد الحرب يُولد في ألمانيا، جيل يرى في التعامل الحر الودي مع جيرانه الأوروبيين شيئًا بديهيًّا. شنُّ حرب ضدهم شيء لا يُتصور. لِمَ يجب على الألمان الشباب أن يشغلوا أنفسهم بحرب مضت منذ وقت طويل؟
لأن السلام ليس شيئًا بديهيًّا ويتطلب عمل شاق ضد الأحكام المسبقة والتمييز، لأنه لا يتسنى تجنب المقامرة بالسلام إلا بإدراك بشاعة الحرب، لأن حاضرنا محكوم بماضينا.
جيل الأجداد هو الجيل الذي جلبت له الحرب فترة طفولة وشباب مثقلة بالآلام. علينا أن نسألهم عنها، طالما يستطيعون حكي تجربتهم. لأن وصف مصير واحد أكثر تأثيرًا من دراسة علمية حول فترة ما بعد الحرب. الجوع كلمة مجردة. ماذا تقول لنا كوبونات المواد الغذائية وتخصيص 1000 سعرة حرارية في اليوم؟ ذكرى واحدة من ذكريات أبي توضح الجوع. لم يكن لديه سوى أمنية واحدة، وهو لا يزال فتى صغيرًا، في عيد ميلاده سنة 1946: رغيف خبز له وحده. ولم تستطع جدتي أن تلبي أمنيته هذه. لم يكن ثمة ما يكفي من الخبز، وكان عليه مشاركته.
الألمان بدأوا الحرب واقترفوا جريمة مروعة. وحلّت عليهم لعنة الفعل الشرير. تلقوا انتقام المنتصرين مما أُقترف باسم الألمان من قمع ودمار. لأن الحرب تؤدي دومًا إلى قسوة وتبلد الإحساس بالعنف لدى كل المشاركين فيها. ولا تعود حياة النفس الإنسانية تعني شيئًا. ولكن تبادل الاتهامات وإحصاء صنوف المعاناة وعدد الضحايا لا يفيد شيئًا. ويفضي فقط إلى اتهامات جديدة وصور جديدة من الظلم.
رغم أن آثار ذلك على كل فرد فظيعة. لذا لا يجب أن ننسى أهوال الحرب وما يبذل من جهد للبدء من جديد في فترة الحرب. مع كل إنسان يصمت، لا يُسئل، يضيع جزء من الماضي.
لذا فشهود العيان في هذا الكتاب يحكون ما عايشوه أطفالًا وشبابًا في الفترة ما بين 1939 و 1955. كل واحد منهم له قصة شخصية مختلفة ويمثل في الوقت ذاته ملايين لاقوا مصيرًا مشباهًا. ورغم أن الكتاب لا يدعي تقديم صورة كاملة، فإن 21 شاهد عيان يقدمون صورة بانورامية لا بأس بها لتلك الفترة. فجميع الأماكن واللحظات المهمة ممثلة، لأن فهم الظروف التالية لنهاية الحرب مباشرة يتطلب معرفة ما عايشه هؤلاء الأطفال أثناء الحرب.
دومًا ما يكون الأطفال هم ضحايا الحروب. فهم من يعانون من جراء تبعاتها دون أن يكون لهم ذنب في وقوعها. عاين الملايين من الأطفال أثناء الحرب والفترة التالية لها عنفًا شديدًا تجاههم وتجاه محيطهم المباشر. ولكن لم يدر حديث حقيقي آنذاك عن تجاربهم المؤلمة تلك. كان يتعين إعادة بناء بلد مدمرة وبدء حياة جديدة. تذكر الماضي كان يشكل مصدر إزعاج. وإن ذُكر الماضي فكان يتم التركيز على المعاناة الشخصية وفقد الوطن.
تم تناسي جرائم العهد النازي. ولم يتحدث أحد عن ملاحقة وقتل القاصرين سواء أكانوا يهودًا أو سلافًا أو معاقين. ولم تكن معسكرات الاعتقال التي لاقى فيها، اليهود والغجر والسلاف والمثليون والمعارضون السياسيون وشهود يهوا وآخرون، صنوفًا من المعاناة مادة للنقاش. وإن حدث، فيُقال إن كل ذلك وقع في أقصى الشرق بعيدًا ولم يعرف به أحد. ولكن هذا ليس صحيحًا. فقد حدث ذلك في كل ألمانيا لأن نظام معسكرات الاعتقال امتد مثل شبكة عنكبوت في أرجاء الرايخ الثالث.

© 2016 Litrix.de

إلا أن أهوال الماضي لا يمكن قمعها بسهولة هكذا، فقد تجلت عند البعض في صورة شكوى جسدية ظهرت بعد الحرب مباشرة. وآخرون، مثل أبي، تمكنوا أن يتعاملوا مع تجاربهم في الحرب بصورة جيدة. فالأولوية كانت للأسرة والصعود الوظيفي. ولم تعود مخاوف طفولته في الظهور إلا في شيخوخته. فجأة بات يعاني من كوابيس مروعة عن الحرب التي كان تلاحقه صورها أثناء النهار.
تتجلى الصدمات النفسية التي عاناها هذا الجيل في حياته اليومية. فلا يكاد يوجد شخص خبر الجوع في طفولته يرمي المواد الغذائية. في بيتنا كان يتم إزالة طبقة رقيقة جدًّا من قشر الجبنة حتى لا يُلقى بشيء يُمكن أكله في النفايات.
أم صديقة لي طباخة ماهرة. لا يمكن أن تقدم أبدًا لأسرتها طعامًا جاهزًا. ورغم ذلك فحجرة الخزين ممتلئة بالمعلبات. لا تريد أن تأكلها، تحتاجها فقط كي تشعر بالاطمئنان. في حالة الطوارئ سيكون لديها ما يكفيها من الخزين ولن تجوع.
اضطرت أمي إلى أن تكتب واجبتها المدرسية في هوامش ورق الصحف. وعندما كنت أرمي ورقًا غير مسود من الجانبين كانت تلتقطه من سلة المهملات وتصيح: "هذا إهدار صرف. عندما كنت في عمرك، كنت أكون ممتنة لو كان لدي ذلك." ومنذ فترة قصير عندما رمى صديق جهاز التوستر المعطوب، طلبت منه أمه أن يحتفظ به لعله يحتاج قطعة غيار. فما كان منه إلا قال متنهدًا: "ماما، الحرب انتهت."
أجل الحرب انتهت منذ 70 سنة ولكن هذا العهد يجب أن يبقى في الذاكرة للأجيال التي حالفها الحظ ولم تشهد حربًا أو تعاني من ويلاتها أبدًا.

نحن آخر من بقي
اسألونا
نحن المسؤولون
نحمل صندوقًا به
بطاقات أوصاف أصدقائنا
مراكز البحوث تتنافس على
فواتير غسيل المفقودين
المتاحف تحفظ كلماتنا في سكرة الموت
وكأنها رفات قديس تحت الزجاج
نحن مَنْ أهدر وقتنا
لأسباب مفهومة
صرنا مُهدرِين للغير مفهوم
مصائرنا آثارِ محمية
أفضل زبائننا
شعور مَنْ بعدنا بتأنيب الضمير
هلموا، تفضلوا
نحن آخر من بقي
اسألونا
نحن المسؤولون

(هانس زال)

حكايات شهود العيان في هذا الكتاب هي ذكرى وإنذار في الوقت ذاته: يجب الحيلولة دون وقوع الحروب. للأسف يمكن أن تقع الحروب في أي مكان، وهذا ما يحدث المرة بعد الأخرى. فعندما تشتد الأزمات تدق ساعة هؤلاء الذين يجيبون على الأسئلة الصعبة بإجابات بسيطة ويبحثون عن الذنب لدى الآخرين، يمارسون الاستبعاد والتمييز في حق الغرباء أو ما يعتبرون أنهم غرباء. لذا علينا مواجهة ذلك في بداياته. فنحن نعرف،

© 2016 Litrix.de

وهذا درس من العهد النازي، أن النظام الإرهابي إن توطدت أركانه، فستتطلب مقاومته شجاعة الأبطال.
ولا يملك هذه الشجاعة إلا قلة قليلة. لذا يجب أن نعي:
"قاوموا البدايات. لا حرب بعد الآن أبدًا"

© 2016 Litrix.de

صفحات 12-19

إيلزه تَمْ

الفرار عن طريق بحر البلطيق

1934 الميلاد في بلدة جروندزيه (شرق بروسيا)

1945 الفرار من شرق بروسيا

1949 الإجازة المدرسية

1950 دبلوم الاقتصاد المنزلي

1951 – 1954 متدربة في إدارة بلدية زدورف

1954 – 1960 موظفة إدارية

1963 – 1978 سكرتيرة من المنزل

1978 – 1997 موظفة في مكتب هندسي

"لاقى لاجئون آخرون من بروسيا الشرقية مصيرًا بشعًا. دهستهم الدبابات الروسية أو قُتلوا أو أُغتصبوا أو خُطفوا أو ماتو من شدة البرد في طريقهم أو غرقوا في بحر البلطيق. نجينا من كل ذلك. فقد سرنا على مسافة قريبة من جبهة القتال ولم تصل إلينا القوات الروسية لأن أمي كانت تصر على مواصلة السير."

إيلزه تَمْ كانت تبلغ من العمر 10 سنوات، أختها الكبيرة إيلي كانت تبلغ 13 سنة وأختها الصغيرة توني 9 سنوات، حينما وصلن سالمات إلى بلدة هولشتاين بعد ثلاث شهور من الفرار من بروسيا الشرقية. ويرجع الفضل في ذلك إلى إصرار أمهن. فقد كانت تحث بناتها دومًا على التقدم "واصلن السير!" حتى حين كن يرتعشن من شدة البرد "واصلن السير!". حتى حين كانت أقدامهن تؤلمهن بدرجة لا تكاد تسمح لهن بالمشي. "واصلن السير!" حتى حين تسنح الفرصة للراحة. ذلك أن الأم كانت تدرك أن الجيش الروسي يتقدم باستمرار. ومع كل تأخر في الفرار يزداد حجم خطر وقوعهم في وسط المواجهة، فالقوات الروسية كانت تتقدم بسرعة كبيرة ولم يكن في وسع الجيش الألماني المتعب والمنهك أن يفعل شيئًا إزاءها.

لم تتردد الأم في أن تتخلى عن جميع ما تملك من أجل قطع الطريق بأكبر سرعة ممكنة. تركت العربة الممتلئة عند بداية الفرار في بروسيا الشرقية، ثم واصلت الأسرة فرارها سيرًا على الأقدام أو بالقطار. هكذا كانوا أكثر سرعة ومرونة مما لو كانوا يسيرون بالحصان والعربة. وحتى عندما فقدوا حقيبتهم الوحيدة وفيها آخر ما يملكون من أمتعة في بلدة سفينموندە، لم تبدد دقيقة واحدة في البحث، بل أسرعت مع بناتها إلى محطة القطار كي تلحق بالقطار، ربما كان ذلك القطار آخر القطارات المتجهة للغرب.

الإخلاء المبكر

© 2016 Litrix.de

ترعرعت إيلزه تَمْ في مزرعة والديها في بلدة جروندزيه في شرق ناحية مازورِن قرب الحدود الروسية. لم تصل الحرب هذه المنطقة الحالمة إلا في أغسطس/ آب 1944. "آنذاك عبر أول اللاجيئن الألمان قريتنا. كانوا من المنطقة الواقعة في روسيا البيضاء حاليًا، وأتوا هربًا من الجيش السوفيتي بعرباتهم وجواميسهم. ولكن نحن الأطفال لم نتوقف كثيرًا عند ذلك الحدث."

لم يتلق سكان القرية الأمر بإخلائها إلا في نوفمبر/ تشرين الثاني، حين اقتربت القوات السوفيتية من الحدود. أخرجت الأم العربة وربطت فيها حصانين. أما بقية الماشية ففكت عقالها وتركتها لمصيرها. "كان ذلك تنفيذًا للأوامر. أتذكر أن الجواميس في القرية كانت تصرخ من الألم لأنها لم تعد تُحلب."

(في الصورة: الأب مع إيلي أثناء جمع القش في شرق بروسيا)

قادت الأم العربة مع حماها الأرمل والبنات الثلاث قاصدة كروناو، بلدة واقعة في في الغرب. خُصصت لهم هناك حجرة صغيرة لا تتسع لخمسة أشخاص. لذا بقي الجد وحده في كروناو. سافرت الأم مع بناتها إلى أختها إيدا التي كانت تعيش في مزرعتها ولا تفصلها عن كروناو إلا بضع قرى. عاشت الأسرة هناك حتى أصدر إريش كوخ، القائد المسؤول في بروسيا الشرقية، أمر الإخلاء في نهاية يناير/ كانون الثاني، التزامًا بأمر هتلر بالقتال حتى آخر لحظة وعدم التنازل طواعيةً للعدو عن أي جزء من الأرض. جاء أمر الإخلاء متأخرًا جدًّا وتسبب ذلك في موت الآلاف. ذلك أن القوات الروسية كانت قد بدأت بالفعل في الاستيلاء على بروسيا الشرقية. كما أن تشكيلات من الجيش الأحمر قد زحفت إلى جنوب شرق بروسيا في طريقها إلى برلين. وصارت بروسيا معزولة عن طريق البر. ولم يعد من الممكن السفر بالقطار أو على الطريق الزراعي. ولم يبق للسكان المحاصرين في شرق بروسيا إلا مخرج واحد: الفرار عبر بحر البلطيق.

ولكن ثمة عائق كبير يفصل بينهم وبين النجاة عبر بحر البلطيق: خليج كالينينغراد. هذا البحر البيني المعروف بالألمانية باسم Frisches Haff (اللاجون الفريزي) والواقع بين شرق بروسيا واللسان الفريزي، لسان بحري ضيق بارز، ولم تكن السفن تقلع إلا من ساحل هذا اللسان. لذا كان على اللاجئين عبور البحيرة الساحلية حتى يبلغوا سفينة.

الفرار عبر الثلج والجليد

"جاء أمر الإخلاء في العشرين من يناير/ كانون الثاني. كان أبي قد كتب لأمي أن تترك كل شيء وتأتي إلى بلدة ناوين بالقرب من برلين حيث كان متمركزًا بوصفه جنديًّا. كان يعرف أن ألمانيا لم يعد من الممكن إنقاذها."

عادت الأم مع بناتها إلى كروناو ولكن الجد البالغ من العمر 80 عامًا لم يرد أن يغادر مع قوافل اللاجئين. كان يتحدث الروسية وقال إنه لن يصبه مكروه. تركت له الأم العربة والحصانين. ولم ترد أن تنتظر حتى تتشكل قافلة أخرى، كانت تريد أن تغادر بأكبر سرعة ممكنة. ملأت البنات الحقائب المدرسية ببعض الزاد والثياب. أما الأم فوضعت ما هو ضروري في حقيبة ظهر وحقيبتين وقصدن أقرب محطة قطار.

"مشينا في الثلج والجليد. كانت درجة الحرارة 25 تحت الصفر. كنا نرتدي جوارب ثقيلة وأحذية عالية بأربطة. ورغم ذلك كنا نشعر بالبرد الشديد والخوف. كان الظالم يحل مبكرًا وكنا نسمع طوال الوقت دوي المدافع. جبهة القتال لم تكن بعيدة."

© 2016 Litrix.de

في مساء الثاني والعشرين من يناير/ كانون الثاني تمكنت الأسرة من ركوب قطار بضائع. كان ممتلئًا عن آخره باللاجئين.

استطراد: الفزع من الروس

في 21 أكتوبر/ تشرين الأول احتل الجيش السوفيتي بلدة نمرسدورف كواحدة من أوائل البلدات على الأراضي الألمانية. وحين استعاد الجيش الألماني البلدة وجد جميع النساء والأطفال مقتولين بطريقة بشعة. استغلت الدعايا النازية هذه الجريمة لزيادة خوف السكان من الروس. حاول السكان المفزعون الفرار من القوات الروسية. وكان الكاتب الروسي إيليا إريرنبورج قد طالب الجنود السوفيت من قبل: بعد أن تقتل ألمانيًّا، اقتل التالي، فليس هناك أجمل من الجثث الألمانية. وأثناء احتلال الشرق الألماني ارتكب الجيش الأحمر مذابح وعمليات اغتصاب جماعية. واقتيد الآلاف للعمل القسري في الاتحاد السوفيتي.

خلف هذه الجريمة التي ارتكبت في حق المدنيين الألمان قصة: في الثاني والعشرين من يونيو/حزيران 1941 بدأ الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي. وكانت الحملة العسكرية حرب إبادة ضد ما سماه النازيون "الإنسان الأدنى السوفيتي". مئات الآلاف من الأسرى السوفيت تُركوا ليلقوا حتفهم جوعًا أو قتلوا في معسكرات الاعتقال. وأثناء حصار لينينجراد مات ثلث سكانها من شدة الجوع والبرد. وعندما كان يُشتبه في دعم إحدى القرى للبارتيزان (حركة المقاومة) كان يساق سكان القرية إلى شونة أو كنيسة ويتم حرقها. ومن إجمالي 55 مليون قتيلًا خلفتهم الحرب العالمية الثانية كان عدد القتلى الروس 20 مليون من ضمنهم سبعة مليون مدني.

"لم يكن ثمة قش في عربة القطار. جلس الركاب متلاصقين، كل على حقيبته. بجانبنا كانت تجلس امرأة مع طفل رضيع. كان يصرخ طوال الوقت. وكنت أشعر بالخوف الشديد أثناء السفر في القطار المظلم."

في الصباح الباكر توقف القطار. وكان على اللاجئين النزول والسير إلى القرية التالية. "أمام عيني حتى الآن السكة الحديد وحقل الجليد الشاسع وفي الخلفية البيوت. مشينا. وفي الطريق أشعل الناس نارًا صغيرة وأحرقوا ما معهم من وثائق (بطاقات الهوية أوراقًا أخرى كان عليها الصليب المعقوف)، وكذلك فعلت أمي. لأننا ظننا أن القطار لن يواصل المسير لأن الروس على وشك الوصول. فخاف الناس أن يتعرضوا للمشاكل بسبب أوراقهم. وفجأة سمعنا صوت فرقعة عال. نظرنا بفزع: تم تفجير القطار. تطاير الخشب والمعدن في الهواء. واصلنا المشي قاصدين القرية. وفيها حصلنا على بعض المشروبات ثم واصلنا المشي.

كنا شقيقاتي وأنا كبارًا في السن إلى حد ما. كان يمكننا السير دون أن تؤلمنا أقدامنا. ولكن بين اللاجئين كان ثمة أطفال في الخامسة والسادسة وأصغر قليلًا. لم يمكنهم السير طويلًا وكان لابد أن يُحملوا."

قافلة اللاجئين على الطريق الزراعي

بعد مسيرة ساعات في البرد القاسي بلغنا في المساء هيلسبرج. كانت المدينة معتمة. فقد كانت واقعة تحت قصف المدفعية الروسية. دوى صوت القذائف وطارت فوق رؤوس النازحين. فأضاءت السماء المرة تلو الأخرى، حين كانت القذائف تصيب بيتًا. كانت البنات تسير لصق أمهن. "ماما، ماذا حدث؟ ماما، لم نعد نتحمل!"

(في الصورة: إيلزه وتوني وإيلي، من اليسار إلى اليمين)

© 2016 Litrix.de

ولكن الأم لم تتوقف. كان تريد أن تغادر المدينة بأكبر سرعة ممكنة. وفي وقت لاحق وجدن مكانًا للمبيت في مدرسة. رقد الجنود واللاجئون متلاصقين على الأرض العارية. "رقدنا كما كنا بينهم. وكنا نتلقى الرفسات حين يتحرك أحدهم أثناء الليل."

في الصباح التالي واصلوا السير. طوابير من العربات اتجهت نحو الغرب. آلاف النساء والأطفال والعجائز فروا على عربات بأحصنة مثقلة بالأحمال. وبينهم الكثير من النساء يسحبن عربات الأطفال والعربات اليدوية بصعوبة ومشقة على الشوارع المغطاة بالجليد. انغرزت الكثير من العربات المحملة في الجليد. "كان من الصعب قطع هذا الطريق. كنا نمشي على الجانب. أمنا كانت تتقدمنا وتمهد لنا الطريق. ونحن الثلاث كن نسير خلفها، قريبين جدًّا منها. أتذكر هذه الفوضى وهذا البرد القاسي وخوفي جيدًّا."

الخليج المتجمد

حالف الحظ الأم وبناتها رغم كل ما أصابهن: فقد تمكنَّ من قطع مسافة كبيرة على عربات الجيش وكدن يبلغن خليج كالينينغراد. إلا إنهن لم يبلغن الساحل إلا في بداية فبراير/ شباط بعد مسيرة يومين على الأقدام. ورغم أن الخليج كان متجمدًا إلا أن الجو بدأ في إذابة الثلوج وبلغ ارتفاع المياه فوق الثلوج مستوى الكاحل. هل سيتحمل الثلج أوزانهن؟ كان قرار الأم محسومًا: عليهن مواصلة السير.

مشى اللاجئون على الثلج في طوابير. زلت أقدام البعض ووقع، تزحلق الخيل. طقطق الثلج وأصدر أصواتًا مخيفة. مضت البنات خائفات بجانب الأم على الثلج. على البقعة البيضاء، كان اللاجئون يشكلون هدفًا سهلًا للطائرات المقاتلة. إلا أن الجو كان ضبابيًّا، وكانت السحب الكثيفة تغطي البحر، وهكذا نجوا من الطائرات التي تحلق على ارتفاع منخفض، ولكن حُجبت عنها الرؤية في ذلك الجو. قُذفت بعض القوافل الأخرى وانكسر الثلج، غرق الناس والخيل والعربات في الماء شديد البرودة. بعد مسيرة ست ساعات بلغوا اللسان الفريزي. دخلوا الغابة وأشعلوا نارًا.

"أحذيتنا وجواربنا وسراويلنا الطويلة ومعاطفنا، كلها كانت مبتلة تمامًا مُشبَّعة بالماء. حاولنا أن ندفئ أقدامنا وسيقاننا الباردة وأن نجفف متعلقاتنا بجانب النار. كان البخار يتصاعد من كل شيء."

إلى ميناء النجاة

في هذه الليلة التقين بالخالة إيدا وأطفالها. كانت الخالة إيدا قد قضت أيضًا أسبوعين في الطريق على عربتها. "واصلنا السير في اليوم التالي. ولكن حركتها كانت أبطء منا بسبب العربة. فقد كانت العربات محملة بحمولات ثقيلة وكانت عجلاتها الخشبية تنغرس في الرمال ولا تتقدم إلا بمشقة. بعد ذلك بوقت طويل علمنا أن الخالة لم تتمكن من الوصول إلى الغرب."

على شاطئ اللسان البحري كان يوجد طريق رملي سارت فيه العربات. أم المشاة فقد مشوا بمحاذاة طرف الغابة. "فجأة أرى جنديًّا راقدًا على طرف الغابة. حين نظرت أدركت أنه ميت. كان هذا أول ميت أراه. تسارعت دقات قلبي. جريت إلى أمي ولكن لم أستطع أن أقول شيئًا من شدة الخوف. لذا فقد اندهشت من عدم رغبتي في السير بمحاذاة طرف الغابة."

أحيانًا كان الجنود يمرون بجانبنا على عربات، عجلاتها كانت ذات أطر مطاطية، فكانت أسرع. كان على المشاة أو ركاب العربات أن يفسحوا الطريق للجنود. ولكن الجنود كانوا يتوقفون ويأخذون الأطفال معهم

© 2016 Litrix.de

أيضًا. "جلسنا القرفصاء فوق العربة، وكان خلفنا جنود مصابون. كانت العربة تهتز وتتأرجح وكان علينا أن ننتبه حتى لا نخبط المصابين."

وبعد مسيرة أيام وصلنا إلى بلدة كالبرج، في الجنوب منا كانت المواجهة دائرة، ولم يعد السير على الأقدام ممكنًا. لم يبق إلا الطريق البحري.

(في الصورة: قافلة من قوافل اللاجئين على اللاجون الفريزي المتجمد، في فبراير/ شباط 1945)

السفر بالسفينة حتى دانتسيج

كالبرج كانت منتجعًا صغيرًا على اللسان البحري وبها ميناء. كان يُزود اللاجئين فيها بالطعام والشراب. وكانت لا تبلغ الميناء إلا سفن صغيرة كانت تمتلئ في الحال عن آخرها. لذا فتم إصدار بطاقات عبور. ولم يُسمح للشباب ومَنْ بمفردهم بركوب السفن، وكان عليهم أن يعتنوا اللاجئين. كانت الأولوية للجنود المصابين ثم النساء والأطفال.

تدافع اللاجئون على السفن. كانوا يأملون أن يصلوا على متن السفن المحملة بحمولات ثقيلة إلى أقصى الغرب. إلا أنهم لم يبلغوا إلا بلدة نويفارفسر القريبة من مدينة دانتسيج. هناك تعين عليهم النزول لأن السفن كانت تعود إلى كالبرج حيث ينتظر آلاف الجنود واللاجئين.

المعمودية الاضطرارية

ركبت الأم وبناتها قطارًا من بلدة نويفارفسر قاصدين الأب في برلين. إلا القطار لم ينقلهن إلا مسافة قصيرة. فقد انتهت بهن الرحلة في بلدة شتولب في ناحية بومرن. فقد أغلق الطريق إلى برلين لأن الروس قد بلغوه. فلم يعد في مقدور الأم وبناتها مغادرة البلدة.

في بلدة شتولب تم إيوائهم في الصيدلية الموجودة في ساحة السوق. "خُصص لنا معمل الصيدلي، ولم يكن فيه أسرة بالطبع. لذا فقد تم نثر القش على الأرض وحصلنا على بطانيات صوفية لنتغطى بها."

أما الطعام فكانوا يحصلون عليه من منصة للعناية بالقرب من السوق. وهناك سمعت الأم بأنه يمكن تعميد الأطفال في بلدة شتولب تعميدًا اضطراريًّا. فسجلت الأم البنت الكبرى إيلي. تلقت إيلي من القس بعض الدروس، ثم تم الاحتفال بالمعمودية. بل وتمكنت الأم من الحصول على تورتة. إلا أن جبهة القتال كانت تواصل الاقتراب.

"كان من الواضح أنها ليست إلا مسألة وقت ويتم الاستيلاء على المدينة. لذا فتحت المحلات أبوابها لبيع ما فيها قبل أن يأتي الجنود الروس وينهبوها. لم يكن من المسموح لنا الشراء إلا ببطاقة، أما الآن فصار في وسعنا أن نشتري ما نريد. لم نأخذ معنا من بروسيا الشرقية شيئًا تقريبًا. اشترت أمنا لنا الثياب ولإيلي فستانًا جميلًا للمعمودية. ولأنه لم يكن معنا أمتعة تقريبًا، اشترت حقيبة لتضع فيها كل هذه الأشياء."

كان دوي القذائف يقترب من المدينة. وبسبب المعمودية ظلت الأم في المدينة فترة أطول مما كانت تخطط. أما بعد ذلك فألحت على مواصلة المضي في الطريق. في الخامس من مارس/ آذار بعد يوم واحد من المعمودية غادرت مع بناتها المدينة. وبعد ذلك بيومين فقط استولى الجيش الأحمر على شتولب.

© 2016 Litrix.de

لم يكن ثمة أمكنية للوصول للغرب عن طريق القطار أو سيرًا على الأقدام. ولم يبق أمامهن سوى الفرار عبر البحر. هكذا سافرن بالقطار القشاش إلى بلدة شتولبموندە الساحلية.

السفر على متن السفينة

"في الميناء وجدنا حشدًا كبيرًا ينتظر للحصول على تذكرة لا يمكن ركوب سفينة بدونها. حل الليل دون أن يتحرك الطابور الذي بدا بلا نهاية. بالقرب منا كانت هناك كبائن لتغيير الملابس. ذهبت أمي بنا إلى إحدى هذه الكبائن لتوفر لنا بعض الحماية أثناء الليل. كانت الكابينة صغيرة فسعتنا بالكاد. وكنا نتبادل الجلوس على الحقائب والاستناد إلى الحائط وافقين اثنين اثنين. كان الجو شديد البرودة. أصابنا البرد وكنا نسعل طوال الليل. في الصباح التالي أسرعنا إلى الميناء. كان الحشد لا يزال موجودًا. في البداية نادوا على النساء اللاتي يصطحبن أطفالًا. كنا كبارًا فلم يُسمح لنا أن نذهب معهن. ثم نودي على النساء الحوامل. فصاحت أمي: "أنا حامل ومعي ثلاث أطفال!" أمي كانت نحيفة ولكن كان لديها كرش صغير. فأبرزته ومضت بنا إلى الأمام. حصلنا على التذاكر وسُمح لنا بركوب السفينة.

سفينة فيلهلم جوستلوف

نسفت الغواصات السوفيتية الكثير من سفن اللاجئين في بحر البلطيق. أسفر غرق سفينة فيلهلم جوستلوف في الثلاثين من يناير/كانون الثاني 1945 عن مصرع أكبر عدد من الركاب، إذ بلغ عدد من لقوا حتفهم 9000، أما سفينة شتويبن فغرقت في العاشر من فبراير/شباط ومعها 3600 راكب، وسفينة جويا في السادس عشر من إبريل/نيسان ومعها 6600 راكب. للمقارنة: عند غرق سفينة تايتنك مات 1500 راكب.

كانت السفينة كبيرة لدرجة لا تتمكن معها من أن ترسو على الميناء. وكان علينا أن نستقل قوارب صغيرة. كان القارب يهتز بشدة. ثم وصلنا إلى السفينة. وكان يتدلى منها سلالم من حبال. وكان علينا أن نتسلق السلالم من القارب المتأرجح إلى أعلى. هكذا جلبونا إلى متن السفينة. تسارعت دقات قلبي وتملكني خوف شديد.

على متن السفينة دخلنا إلى مكان كبير. على جانبيه كان يوجد مضاجع. خُصص لكل أسرة مضجع ولكن لعدة ساعات فقط، ثم كان يتم التبديل، حتى يتسنى للجميع أن يضطجع لمرة على الأقل. وفي المساء بدأت السفينة في التحرك.

كان الروس قد وصلوا قبالة كولبرج. وحين مررنا قذفونا. انطلقت صفارات الإنذار وتم إطفاء الأنوار وسدت جميع الكُوات. ثم ساء الطقس وارتفعت الأمواج. جلسنا محشورين بجانب بعضنا البعض. أصيب الكبار أولًا بدوار البحر. أما نحن الأطفال فقد تحملنا لفترة أطول، ولكن بعدها تقيأنا بدورنا. فقد كانت الرائحة وحدها تبعث على الغثيان. وأخيرًا هدأ البحر. حصلت مع شقيقاتي على مضجع فتسنى لنا أن نستريح قليلًا. جلست أمنا معظم الوقت على الحقيبة. أبحرت بنا السفينة حتى بلدة سفينهموندە. ثم تعين علينا أن نغادرها وندخل المدينة."

(في الصورة: سفينة لاجئين في بحر البلطيق المتجمد)

النجاة في اللحظة الأخيرة

© 2016 Litrix.de

بحلول المساء قيل: السفينة ستبقى في الميناء، يمكن أن يبقى الأطفال على متنها وينامو فيها. ذلك أنه لم يوجد أماكن للمبيت في المدينة الممتلئة عن آخرها باللاجئين. رجعت الأخوات الثلاث إلى السفينة، بينما ظلت الأم مع الأمتعة في المدينة. في جوف الليل علمت أن قطارًا سيأتي، فتركت كل شيء وركضت نحو السفينة، أيقظت بناتها، وأسرعت بهن إلى المدينة. لم تجد الأمتعة وسط الزحام. ولكنها لم تعطل نفسها بالبحث وركضت مع بناتها إلى محطة القطار.

"ضاعت الحقيبة بكل ما تحويه من أشياء جميلة. ولكن أمي تصرفت على النحو السليم. كان يمكنها أن تقول: سأترك البنات ينمن فهن في غاية الإرهاق. سنأخذ غدًا القطار التالي ولكنها أحضرتنا. وهكذا أنقذت حياتنا. لا أعرف إذا كان قطار آخر قد غادر بعد ذلك. بعد يومين دُمرت مدينة سفينهموندە في غارة جوية. غرقت السفن بكل اللاجئين على متنها. مات وجُرح الكثيرون. نجينا من هذا المصير البشع في اللحظة الأخيرة."

ركبن قطار بضائع متجهًا إلى الغرب. لم يكن ثمة مكان كاف لهن. ولكن ذلك لم يكن مهمًا. المهم أن يواصلن الطريق.

في الوطن الجديد

سار القطار حتى بلدة برشيم في منطقة مكلنبورج. "كان يجب علينا الدخول إلى دار التعقيم. بعد شهرين من الفرار كنا متسخين تمامًا. دخلنا صغارًا وكبارًا وأطفال كثيرون إلى غرفة استحمام، ثم أتت المياه من أعلى، وحصلنا على ثيابنا بعد أن تم تعقيمها."

خُصصت لهن غرفة. احتفلت فيها إيلزه في الخامس عشر من مارس/آذار بعيد ميلادها الحادي عشر، وخبزت الأم من البطاطس المسلوقة والمخلوطة بالدقيق وبيضة تورتة عيد الميلاد. "كان الاحتفال متواضعًا. ولكننا فرحنا رغم ذلك."

لم تستمر الإقامة لمدة طويلة، فقد كانوا في بلدة برشيم في انتظار فوج كبير من اللاجئين. وكان يجب أن يُخلى المكان للاجئين الجدد. إيلزه وأسرتها ركبوا قطارًا متجهًا إلى هامبورج في نهاية مارس/ آذار. "فيما بعد أدركنا أنه بترحلينا قد حالفنا قسط كبير من الحظ. ذلك أن الأمريكان أتوا أولًا إلى مكلنبورج، ولكنهم سلموها فيما بعد للروس. أي أننا بعد ذلك الطريق الطويل كنا قد سنكون في المنطقة السوفيتية. ولكن بذلك وصلنا إلى الغرب."

القوات البحرية وعمليات الإنقاذ

بعد الحرب انتشرت حكاية مفادها أن الهدف الأساسي للقوات البحرية الألمانية في عام 1945 كان إنقاذ ملايين اللاجئين الألمان عبر بحر البلطيق. وفي الواقع لم يمنح القائد الأعلى للقوات البحرية كارل دونيتس الأولوية لإنقاذ اللاجئين إلا في السادس من مايو/أيار قبل يومين من انتهاء الحرب. وحتى ذلك الحين كانت الأولوية لمهام الدفاع والهجوم من أجل إيقاف تقدم الجيش الأحمر.

© 2016 Litrix.de

انتهت رحلتنا بالقطار في هامبورج. "جلسنا نحن الأطفال نرتعش من شدة الخوف في محطة القطار المدمرة." وتم نقل اللاجئون بعربات نقل إلى القرى المجاورة ووزعوا عليها. خُصصت لإيلزه تم وأسرتها غرفة عند فلاح في قرية ديتمرشن. "هكذا انتهت رحلتنا الشاقة الطويلة."

(في الصورة: الصورة الوحيدة المتبقية للبنات مع أمهن)

© 2016 Litrix.de

صفحات 42-53

أطفال مفقودون

"عُثر عليّ في آخر يناير/ كانون الثاني 1945 على الطريق الزاعي بين بلدة إلبينج ومارينبورج. كنت في الثلاثة من عمري وأرتدي معطفًا أزرق غامقًا وطاقية تريكو زرقاء بكرة بيضاء. أمي كانت تدعوني بُوتسي. هل يعرف أحد من أنا؟"

خدمة البحث التابعة للصليب الأحمر الألماني لديها حتى الآن قائمة بأسماء أشخاص لا يعرفون أسماءهم ولا أصولهم ولا أسرهم. مئات الآلاف من الأطفال يُتِّمُوا خلال الحرب العالمية الثانية. سقط آباؤهم على الجبهة وماتت أمهاتهم وجداتهم وعماتهم وخالتهم في الغارات الجوية أو من شدة الجوع أو البرد أو أثناء الفرار أو لقين حتفهن قتلًا. تاه الكثير من الأطفال في أتون المدن المحترقة أو وسط فوضى الفرار. استمر البحث عن أسرهم أحيانًا لسنوات طويلة.

تمكنت خدمة البحث التابعة للصليب الأحمر الألماني أن تكشف ملابسات مصائر ما يقرب من خمسمائة ألف طفل. وتمتلك المنظمة قاعدة بيانات تحوي خمسين مليون بطاقة. ورغم ذلك لم يتضح ما حدث لـ 1,3 مليون شخص ألماني، من بينهم أربعة آلاف طفل.

ومثَّل العثور على أصول من كان يدعون باللقطاء صعوبة خاصة، وهم أطفال صغار جدًّا لم يتمكنوا من تذكر أسمائهم أو تواريخ ميلادهم أو عناونيهم. عُثر عليهم بمفردهم وسط الحطام أو قام لاجئون آخرون بالتقاطهم من مصارف مياه المطر واصطحبوهم معهم في قوافلهم. وكان فهرس بطاقات خدمة البحث يحوي 33 ألف لقيط. وعلى مر السنوات اتضحت هويات معظمهم. ولكن لا يزال 600 منهم لا يعرفون من هم. يعيشون حتى اليوم باسم غير اسمهم الأصلي وتاريخ ميلاد تقديري.

ومثّل من كانوا يدعون بأبناء الذئاب مجموعة أخرى خاصة. وهم أطفال كانوا قد افترقوا عن أسرهم في شرق بروسيا. مات أقاربهم أو أُختطفوا أو فقدوهم أثناء الفرار. وحتى عندما كانوا يتمكنون من العودة إلى موطنهم، لم يكن لديهم أي أساس لحياة كريمة، لأن المواد الغذائية النادرة لم تكن توزعها الإدارة السوفيتية إلا على أفراد الشعب العاملين. حاول الأطفال إطعام أنفسهم عن طريق الشحاذة أو مما يعثرون عليه مصادفة من موادة غذائية في أقبية المنازل المدكوكة أو من قمامة الثكنات السوفيتية. أمسك الروس بمئات من أبناء الذئاب ووضعوهم أولًا في ملاجئ للأطفال. ورُحل 4700 طفل على عدة دفعات إلى المناطق الواقعة تحت الاحتلال السوفيتي.

وذهب آلاف الأطفال بطريقة غير شرعية إلى الجمهوريات السوفيتية البلطية للشحاذة أو الحصول على الطعام مقابل العمل. وفقًا للدعايا السوفيتية كان الألمان أعداء الدولة، ورغم ذلك احتضنت الكثير من العائلات في ليتوانيا أطفالًا ألمانًا، وادعوا أنهم أقاربهم حمايةً لهم. واستُغل الكثير من أبناء الذئاب كأيد عاملة رخيصة في المزارع، لم يتسنَّ لهم الذهاب للمدرسة ونسوا لغتهم الأم. وفي عام 1951 تمكن ما يقرب من 3000 طفل من أبناء الذئاب من مغادرة ليتوانيا إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية).

وواجهت رعاية الأيتام صعوبة كبيرة جدًّا في ألمانيا لأن الكثير من الملاجئ دُمرت جراء القصف الجوي. وكان يوجد بالكاد وقود للتدفئة، أما الطعام فكان قليلًا بسبب ندرة المواد الغذائية. العديد من الأطفال وجدوا

© 2016 Litrix.de

أمهاتهم المختفيات بمعاونة خدمة البحث أو عاد آباؤهم المفقدون من الأسر. إلا أن الحرب سلبت آلاف الأطفال كل شيء: أسرهم وموطنهم وسلبت من بعضهم هوياتهم.

(في الصورة: سجل خدمة البحث عن الأطفال | 1957)

© 2016 Litrix.de

أورزولا هيلر

بنتًا من أبناء الذئاب في بولندا

1933 الميلاد في بلدة أوستروده شرق بروسيا

1944 الإجلاء إلى غرب بروسيا

1946 التهجير إلى مكلنبروج

1947 السفر إلى المنطقة الواقعة تحت الاحتلال الإنجليزي

1951 الإجازة المدرسية

1951 – 1954 التدريب المهني

1968 – 1973 دراسة التربية الدينية

1973 – 1993 مُدرِّسة تربية دينية

2012 الوفاة على جزيرة سيلت

تحب أورزولا هيلر مشاهدة أفلام الكوارث في التلفاز، تمنحها قدرًا كبيرًا من الطمأنينة، إذ يظهر بطل قوي في موقف ميئوس منه وينقذ المعرضين للموت مخاطرًا بحياته، فحياتها تشبه فيلمًا من أفلام الكوارث. إلا أنه لم يأت بطل جذاب ومد لها يد المساعدة وإنما تعين عليها وهي في الثانية عشر من عمرها أن تصير بطلة كي تنقذ أختها وأخيها الصغيريين.

بدأت مأساة طفولتها في عام 1944 في بلدة إنستربورج الواقعة في شرق بروسيا. أورزولا هيلر كانت الأكبر سنًا وسط أربعة إخوة. توفى أخوها هورست في الصيف بمرض الدفتيريا، وفي يوم جنازته نُقلت الأم بسبب آلام المخاض إلى المستشفى وتعين على أورزولا أن تدفن أخوها بمفردها. ومات أخوها حديث الولادة في يوليو/ تموز 1944. "مات مختنقًا في المخبأ. لم يكن لدى أمي سوانا نحن الثلاثة: أنا وأختي روت ذات الثماني سنوات، وكلاوس الذي كان في السادسة. أرى في موت أخي بداية لكل الفظائع التي ألمت بي."

تم إجلاء الأسرة في أواخر الصيف من شرق بروسيا وحلّوا في بلدة ريزينبورج في غرب بروسيا حيث كانت تعيش جدة أورزولا هيلر. "كان كل شيء منظمًا آنذاك. تمكنا من أن نأخذ متاعنا معنا. واحتفلنا بعيد الميلاد المجيد في ريزينبورج. ولكن في التاسع عشر من يناير/ كانون الثاني كان الروس قد وصلوا إلى البلدة المجاورة. وتعين علينا الفرار."

الفرار إلى بومرن

أسرعت الأم مع أطفالها وبعض حقائب اليد إلى محطة القطار. "أتى قطار ركاب ولكنه كان ممتلئًا تمامًا، وكان الركاب يقفون بين المصدات. سحبنا جنود مصابون عبر النافذة لأن الركاب كانوا يتعلقون بالأبواب."

© 2016 Litrix.de

استمرت الرحلة حتى جنوب بلدة دانتسيج. وبعد أسابيع قليلة وصلنا في المرحلة التالية إلى بلدة كوسلين في بومرن. "أنزلونا من القطار وقالوا: أن الروس لن يأتوا. لن يعبروا نهر فيستولا، سيمنعهم هتلر من ذلك." ما قاموا بيه من غسل للدماغ شيء لا يصدق."

بعد أسبوعين اقتربت جبهة القتال بصورة مخيفة، ففرت الأسرة في قطار بضائع. "كان علينا الوقوف ولكن لم يكن في مقدورنا السقوط، إلى هذا الحد كانت عربات القطار ممتلئة. وأصعب شيء كانت مسألة الحمام. لم يتمكن أحد من الخروج. كانت رائحة لا تطاق وبكاء وصراخ."

اتجهوا في البداية نحو الجنوب. ولكنه كان واقعًا في منطقة قتال. لذلك غير سائق القطار المسار إلى الشمال. وقبل مدينة كولبرج انتهت الرحلة في أرض خلاء في مارس/ آذار.

فقدان الأم

لم يتمكن القطار من دخول المدينة لأن محطة القطار كانت مزدحمة بالقطارات. اضطر اللاجئون إلى الانتظار في عربات القطار طوال النهار والليل.

(في الصورة: أورزولا، روت، كلاوس (من الشمال إلى اليمين) مع أمهم. وعلى اليمين أخوهم هورست المتوفى في عام 1944)

كان الجليد كثيفًا والجو شديد البرودة. "لم يكن ثمة حيز لنضطجع. نمنا وافقين ودفأنا بعضنا البعض، بل حدثت في عربتنا حالة ولادة." سرعان ما نفد ما معنا من زاد. في الأيام الأولى تسنى للاجئين الحصول على المواد الغذائية من قرية قريبة. "ولكن بعد ثمانية أيام لم يعد في مقدورنا الحصول على شيء من هناك. حتى ذلك الحين لم نجرؤ على الابتعاد عن القطار كثيرًا، فقد كان من الممكن أن يواصل المسير فجأة. ولكن الجوع اشتد كثيرًا فقررت بعض النساء أن تسير إلى مدينة كولبرج بمحاذاة شريط القطار. فقد انتشرت شائعة مفادها أن خباز قرر أن يستخدم كل ما لديه من دقيق في الخبز قبل قدوم الروس. فذهبت أمي أيضًا. وبقينا نحن الأطفال الثلاثة في القطار."

حصن كولبرج
صمدت المدينة الواقعة على ساحل بحر البلطيق أمام حصار قوات نابوليون في أوائل القرن التاسع عشر. قدم المخرج فايت هارلان فيلم بروباجاندا عن هذا الحدث، وعُرض الفيلم لأول مرة في الثلاثين من يناير/ كانون الثاني 1945. كان هدف الفيلم تعزيز إرادة الصمود لدى الألمان في مدنهم المحاصرة والمدمرة.

الروس يقتحمون القطار

"أمي مضت. الجو هادئ وساكن وجميل. أخرج إلى الجليد، فجأة أرى أشباح غامقة اللون محنية تجري، كانوا على مسافة بعيدة، فلم أتمكن من التعرف عليهم، في البداية أفكر أنهم من سكان القرية، ولكن يتضح أنهم جنود روس. يحفرون لتنصيب أرغن ستالين (الكاتيوشا). يشكلون الجبهة الأمامية أمام كولبرج. لوهلة بدا كل شيء هادئًا، ولكن سرعان ما استولى الروس على قطارنا. فتحوا الأبواب بعنف، صرخوا بكلمات روسية، أخذوا النساء والساعات. ثم طلبوا منا أن ننزل لأن القطار سيتم تفجيره. آخذُ من حقيبتنا حذاء إضافيًّا لكل منا وأضعه في جيوب معاطف إخوتي. ثم آخذ سكينًا وأقفز إلى الخارج. ثمة صراخ رهيب. الرجال القليلون في القطار، كلها كبار في السن، يُضربون حتى الموت. النساء تُغتصب. وحين ترغب امرأة في حماية فتاة صغيرة تُضرب بالأحزمة. دم كثير يسيل على الجليد الأبيض."

© 2016 Litrix.de

مصابة بين الجبهتين

من بقي على قيد الحياة سِيقَ إلى الغابة القريبة. تبعتهم أورزولا مع إخوتها ببطء قدر الإمكان، فقد كانت تنتظر أمها. "كان واضحًا لي أنهم سيقتلوننا رميًا بالرصاص في الغابة. كنت آمل أن تأتي أمي قريبًا، فلا نضطر نحن الأطفال أن نموت بمفردنا، بل نلقى حتفنا جميعًا معًا."

شكلَّ الأطفال نهاية الرتل. مروا بمزرعة، فدخلتها أورزولا مع إخوتها. "أخبرت المزارعة، شابة بولندية، أننا ننتظر أمنا، فأعطتني بيضة نيئة مسكرة.

ثم بدأ الهجوم على كولبرج. كنا بين الجبهتين. تطايرت القذائف من الجانبين فوق رؤوسنا. اختبأت الأم التي ولدت طفلها في القطار في مبنى جانبي. أصابت هذه الشونة قذيفة، فلقيت المرأة التعيسة مع طفلها حتفها في الحال، ثم دُكت المزرعة، جُرحت جرحًا عميقًا وكبيرًا في ساقي. أختي وأخي أتيا من الأركان زاحفين، كانا يدميان وأجسامهما ممتلئة بالخدوش. أمسكتهما من يدهما وركضت إلى الغابة للحاق بالآخرين.

حين كنا نرى السماء في الغابة أحيانًا، كنا نجدها شديدة الحمرة. قالوا إن الجحيم لابد أن يكون هكذا. كان علينا أن نمر بالقرب من أراغن ستالين. كانت عالية الصوت لدرجة أنني فقدت حاسة السمع. ولم أستعدها إلا بعد عدة أيام."

(في الصورة: أورزولا هيلر في بلدة إنستربورج)

أرغن ستالين: استخدم الجيش الأحمر قاذفات متعددة الصواريخ كانت تطلق القذائف في تتابع سريع. ولأن الصاوريخ كانت مثبتة في ترتيب يشبه ترتيب أنابيب الأرغن، أطلق عليها الألمان اسم أرغن ستالين نسبةً إلى جوزيف ستالين رئيس الدولة والقائد الأعلى للجيش السوفيتي.

البيت الجديد: ركن في غرفة

ساق الجنود الروس الأطفال حتى أقرب قرية. وفي المزرعة خُصص لهم سرير من القش في ركن من غرفة. في هذا المكان عاشوا سنة ونصف. وفي هذا الظرف الاستثنائي كان لا يهم أي شخص سوى نفسه.

"حينذاك أدركت الفظاعة التي يمكن أن يتسم بها الكبار. كنا أطفالًا لا حول لنا ولا قوة ولم يكن معنا إلا أقل القليل ورغم ذلك سلبونا إياه. وحين كنت أحصل على شيء يُأكل وأوزعه على إخوتي كانوا ينتزعونه من أيدينا. كنت أخبئ الأشياء أو أدفنها في الخارج حتى لا يأخذونها."

كان الأطفال شهودًا على عمليات الاغتصاب الوحشية المرة تلو الأخرى. "كان الجنود الروس يأتون في الليل غالبًا، ويغتصبون النساء ببشاعة أمام أعيننا. لم يأبهوا لنا نحن الأطفال. لم يحدث لي شيء لأنني كنت صغيرة ورقيقة ولم يكن لدي ثديان. أما الفتيات الصغار اللاتي كن يمتلكن جسدًا أكثر نموًا مني فلم يُرحمن. وفي ليلة قرع جنود ألمان فارون الباب طالبين طعامًا ومأوى. فصاحت النساء: "أغربوا عن وجهونا، فكل ما حدث لنا كان بسببكم." ولم يفتحن لهم الباب.

© 2016 Litrix.de

وفي يوم من الأيام قيل: الحرب انتهت. لم يصدق الكبار ذلك. كانوا يظنون أن الجنود سيأتون ويحررونا ونعود إلى منازلنا. عاد الكبار للخوض في أمور لا طائل منها.

وبعد الحرب سمعنا عن معسكرات الاعتقال النازية وما اقترفه الجنود الألمان في روسيا. حكى لنا ذلك روس يتحدثون الألمانية. قالوا إنه علينا ألا نندهش مما يحدث لنا الآن لأننا فعلنا ذلك معهم أيضًا."

بنتًا من بنات الذئاب في بولندا

في البداية كانت المُزارعة تعطي الأطفال من وقت إلى آخر بعض الطعام. ولكن سرعان ما لم يعد لديها هي نفسها ما تأكله. فبدأ الأطفال يبحثون عن المواد الغذائية في المنازل المهجورة خارج القرية.

"كان الناس خائفين، فقد كان حالهم يسوء حين يأتي الروس. وكان علي أن أرهف سمعي وأنتبه. كل يوم كان علي أن أفكر وأقرر: أين يمكننا أن نبحث عن شيء نأكله؟ أي الأماكن خطر وأيها آمنة؟ متى علينا العودة حتى نكون في البيت قبل أن يحل الظلام؟ كنا نعيش اليوم بيومه. ولم نكن ندري أبدًا ما ينتظرنا في اليوم التالي."

كانوا الأطفال اليتامى الوحيدين في القرية، ولكن الغابات كانت تعج بعصابات الأولاد. "كنا نختبئ منهم. كانوا أكثر غلظة وأكبر حجماً مني وبعضهم كان شريرًا. كنا نخشى أن يسلبوا منا شيئًا."

أورزولا وإخوتها كانوا خارج المنزل طول اليوم للبحث عما يأكلونه أو للشحاذة. فلم يكن ثمة من يعطيهم شيئًا. "كنت من بنتًا من بنات الذئاب، رغم أننا كنا في بومرن وليس في ليتوانيا. نمت لي قوى، وظهرت الغريزة الحيوانية فيّ. ذلك أنه توجب علي أن أجد طريقة للتعامل مع الطقس والحيوانات والنباتات والناس الآخرين، رغم أنني كنت في الثانية عشر من عمري، قصيرة ونحيفة. وكان علي أن أحافظ على إخوتي الصغار بجانبي لأنني كنت مسؤولة عنهم. كنت بمثابة أم بديلة لهم وكنت أواسيهم دومًا . كان علي أن أقوم بهذا الدور من أجلهم. وأحيانًا كان يجب أن أكون صارمة كي ننجو: "عليكم أن تفعلوا ما أقوله لكم. إن لم تفعلوا ذلك سأترككم وحدكم. هددتهم بذلك كثيرًا. ولم أشعر بتأنيب الضمير. ماذا عساي أن أفعل؟ كان علي أن أقوم بأي إجراء تربوي، حتى تسير الأمور وإلا كان الهلاك مصيرنا. أنقذتهم وأنقذوني. أفكر كثيرًا لو لم أكن أتحمل المسؤولية تجاه إخوتي لم أكن لأنجو. كنت سأستسلم. كان أمرًا لا يحتمل."

غرغرينا وتيفود وقمل

لم يكن هناك مرهم أو ضمادة لإصابة أورزولا الشديدة في ساقها. نصحها النساء أن تضع عليها نبات لسان الحمل الكبير كي تعالج الغرغرينا. في الربيع والصيف كانت تقطف أوراق النبات التي تنمو على جانبي الطريق وتضعها على الجرح. "كان يمكن أن أفقد ساقي لو كان الجرح أكثر عمقًا. ولكني أنقذتها بلسان الحمل الكبير."

بسبب التعقيم السيئة انتشرت الأوبئة. "كنا نصاب بالتيفود والدونسطاريا على التوالي. ذات مرة شارفت على الموت: كنت فاقدة الوعي أو في غيبوبة. ظن الكبار أنني ميتة وكادوا يدفونني حية. طافت روحي فوق جسدي، كنت أشعر بكل شيء ولكن لم أقدر على فعل شيء. استجمعت ما تبقى لي من قوة وعدت إلى الحياة.

© 2016 Litrix.de

كنت أدرك: لا يمكن أن تموتي وإلا سيموت إخوتك قريبًا. كان الكبار سيطردونهم من البيت ليحصلوا على ركننا الجميل لأنفسهم."

أخي الصغير مرض بالتيفود مرضًا شديدًا ونُقل إلى بيت مع مرضى آخرين. "لم يعالجوهم هناك. كانوا ينتظرون موتهم. ولكني فكرت: أخي لن يموت!" لذلك أحضرت له طعامًا قدر ما استطعت. ذات يوم حصلت على قطعة سجق، فقسمتها على ثلاثة وذهبت بها إلى أخيها.

"لم يكن مسموح لنا بلمس بعضنا البعض لأنه كان في الحجر الصحي. ولكن كان علينا أن نعطيه قطعة السجق في يده مباشرة حتى لا يأخذها منه الآخرون. لذلك ندينا: كلاوس، تعالى إلى النافذة. قضم وقال: إنها مليئة بالدود. فقلت: أجل ولكن طعمها حلو. كنت قد رأيت أن السجق ممتلئة بالدود ولكني قلت: إنه صغير ولن يلاحظ ذلك ولكنه لاحظ. ورغم ذلك أكلها."

كان الأطفال يفلون بعضهم البعض يوميًّا على مدار ساعات ويطقطقون بيض القمل. "ورغم ذلك كان القمل منتشرًا فينا لأننا كنا نعدي بعضنا البعض من جديد كل مرة."

"أدين بحياتي لنبات القراص"

أورزولا هيلر لم تكن تعرف وهي بنت الثانية عشر أي النباتات صالحة للأكل. حين نما القراص في الربيع رأت النساء تقطفه. "عشنا من القراص بصورة رئيسية. وعلى الأقل لم تكن معدتنا خالية هكذا."

كما تغذى الأطفال على الطرخشقون أو سن الأسد وفي الصيف والخريف على الثمار. كان يمشون في الحقول والمروج ويجمعون ما يجدونه. أحيانًا كان يرون دجاجة. "كنا نأخذ البيض من تحت الدجاج. كنا نقسم البيضة علينا نحن الثلاثة. كنا نكسرها ونأكلها نيئة."

ذات يوم وجدوا شجرة برقوق ممتلئة بالثمار الناضجة. أخذوا ما استطاعوا حمله من برقوق.

"كان معنا الكثير وكان لا يمكننا أن نأكله مرة واحدة، لأنني كنت أوزع جزءًا قليلًا مما لدينا من طعام حتى يتبقى لدينا ما نأكله في الأيام التالية. لذلك ذهبت إلى المزارعة وطلبت منها برطمانات. قالت لي إنه علي أن أصب عليها ماء ساخنًا. لم أكن أعرف كيفية المحافظة على الفاكهة. فلم أنشأ في الريف، فأصاب مخزوننا من البرقوق العفن، تخمر. بكيت كثيرًا. بقي لي من هذه الفترة شعور كبير بالامتنان تجاه كل ما يُمكن أكله. كل عام في الربيع أقطف القراص وآكله. أقدس هذا النبات وكأنه رفات قديس، فأنا أدين بحياتي له."

(في الصورة: طفل لاجئ | 1945)

أحذية من خيط الدوبارة

كانت أحذية الأطفال ممزقة تمامًا. وجدت أورزولا هيلر بكرة دوبارة. كانت قد تعلمت الأشغال اليدوية في المدرسة. طلبت من المزارعة إبرة حياكة وحاكت من الخيوط الرفيعة البيضاء أحذية لها ولإخوتها. واستخدمت كتان الجوارب كنعل. "هكذا صارت الأمور آنذاك. لم يساعدني أحد. كان علي الابتكار

© 2016 Litrix.de

والتجريب وإيجاد ما يصلح للاستخدام. كان هذا أكبر إنجاز حققته. وكان علي أن انتبه حتى لا يأخذ الكبار مني ما صنعته أو عثرت عليه.

في عام 2003 وجدت في المتحف اليهودي في مدينة ريجا أحذية مثل التي حكتها آنذاك. انهرت. وقفت أمام الفاترينة وبكيت حتى لم أعد قادرة على التنفس. ابتعلت ريقي المرة بعد الأخرى حتى يتسنى لي التنفس. لم يفهم رفقاء السفر ما حدث لي فجأة."

الأعداء ساعدونا

في الشهور الأولى كانت بومرن محتلة من قبل القوات الروسية، بعد ذلك جاء الجيش البولندي. لم يوزع الروس المواد الغذائية ولكن عندما كان يقابل جندي أطفالًا كان يعطيهم شيئًا من زاده.

"كان يعرفوننا وربما يعرفون أننا أيتام. الروس كانوا لطفاء مع الأطفال، كانوا يحبوننا. لذا كانوا يعطوننا شيئًا من أكياسهم. كانت أكثر التجارب جمالًا حين كان الروس يمنحوننا شيئًا نأكله. وكنت أشعر بفرح كبير حين يعزفون الموسيقى. كانت أغانيهم جميلة جدًّا. حتى الآن أحب الأغاني الروسية. لا أكره الروس. بعد ذلك جاء البولنديون. لم يأذونا نحن الأطفال. وكانوا يساعدوننا من وقت لآخر، يعطوننا بعضًا مما لديهم من طعام: قطعة خبز سميكة مثلًا. كنا نتقاسمها نحن الثلاثة. لم يكن ما يعطوننا كثيرًا أبدًا، لأنه لم يكن لديهم أصلًا الكثير. وفي المقابل لم نكن ننتظر المساعدة من الألمان الكبار. لم يهم الواحد منهم إلا النجاة بنفسه. ولم يهمهم أي شيء آخر. لم يساعدني سوى أعدائنا السابقين."

الصديق الوحيد

حينما احتل البولنديون بومرن تعين على أورزولا هيلر العمل لدى الجنود. كانت مهمتها تتلخص في العناية بخيل الفوج البولندي. "كان الفرس الرئيسي يأتي لي دومًا. يخفض رأسه، فأقف واحتضنه وأتدفأ في عنقه وأتحدث معه وأحكي له كل ما يحز في نفسي وكل ما حدث. ركوب الحصان والتودد معه كان يمثل لي سعادة كبرى لأنه كان بجانبي دومًا. شعرت في أعماقي بالدفء والأمن والأمان.

التهجير من بولندا

في آخر صيف 1946 كانت أورزولا تعمل في الحقل، حين أتت أختها الصغيرة تجري وصاحت: "ينقلون الناس إلى محطة القطار. سيتم ترحيل الجميع." ركضت أورزولا إلى منزلها. كان على الألمان أن يستقلوا عربة. وأمر العمدة البولندي الأطفال قائلًا: أنتم ستبقون هنا."

لم ترد أن تبقى أورزولا بوصفها الألمانية الوحيدة مع إخوتها، فهمست لهم: "سنمضي معهم، عليكم الاختباء، اذهبوا إلى مقدمة العربة، واختبئوا تحت سيقان الكبار فلن يراكم العمدة. "ثم اختبأت هي الأخرى في العربة. هكذا وصلوا إلى محطة القطار.

"لم نكن نعرف إلى أين يمضي بنا القطار. لم يقل لنا أحد شيئًا. كان من الممكن أن تكون وجهتنا سيبريا." إلا أن الرحلة في عربة الماشية المكشوفة مضت تجاه الغرب. لم يكن في القطار لاجئون سابقون من شرق بروسيا بل سكان بومرن أيضًا الذين تم تهجيرهم. توقف القطار في بلدة شتتين.

"توقف القطار على خط جانبي، فأتى بولنديون، لم يفتحوا الأبواب بل تسلقوها وانتزعوا حقائب الركاب من تحت مؤخراتهم، خصوصًا حقائب سكان بومرن الذين كان يحملون بعض المتاع. مثّل ذلك الصدمة التالية

© 2016 Litrix.de

لي. يا آلهي! ألن يتوقف ذلك أبدًا؟ الجميع يصرخ ومتعب ومنهك. لم يعد في طاقتي سماع ذلك. هذا بشع جدًّا."

خرساء في ملجأ الأيتام

يصل الإخوة إلى منطقة بانكو التابعة للقطاع السوفيتي في برلين. "تم تسجيل بياناتنا وترحيلنا إلى ملجأ أيتام في بلدة كريفيتس في مكلنبورج. كتبوا أنا أمنا ماتت رغم أنني قلت أنها "فُقدت". بات في إمكاني أن أطرح عن نفسي مسؤولية إخوتي. لم أعد مسؤولة عنهم. لا أريد أن أرى شيئًا ولا أريد أن أسمع شيئًا. ثم توقفت عن الكلام. لا أعرف ماذا حدث لي. عندما يشعر المرء بالضغط الشديد يفقد لغته."

مديرة الملجأ، كنا نسميها العمة "أني" شعرت بالقلق على الفتاة الخرساء وأولتها عناية خاصة. قال الطبيب أنها لم تنمو بسبب فترات الجوع الطويلة. أورزولا كانت قصيرة وضعيفة جدًّا بشكل لا يمكنها من الذهاب إلى المدرسة. "أضف إلى ذلك أنني لم أكن أتكلم. فماذا عساي أن أفعل في المدرسة؟" ولكن العمة "أني" بذلت كل ما تستطيع كي تساعد أورزولا. أرسلتها إلى كورال الكنيسة. "لم أتكلم ولكنني شدوت. وبدأت أبكي عند سماع الموسيقى العذبة. شدوت وبكيت كثيرًا."

اختلف الإخوة الثلاثة عن الأطفال الآخرين في الملجأ في شيء واحد: كان رأسهم به شعر. "حُلقت رؤوس الجميع لأن شعرهم كان ممتلئًا بالقمل. أما نحن فقد سُمح لنا الاحتفاظ بشعرنا لأنه لم يكد يكون به قمل. بذلنا جهدًا كبيرًا في سبيل ذلك. وكانت هذه مكافأتنا."

انتشرت الحمى النمشية في ملجأ الأيتام. كان الإخوة قد أصيبوا بالتيفود من قبل فأكسبهم ذلك على ما يبدو مناعة ضد المرض. وعندما مات بعض أطفال الملجأ شعرت أورزولا باليأس: "لم أعد أرغب في الحياة. ظننت أنه لا فائدة ولا معنى لأي شيء. إذا استمر الأمر على هذا النحو، ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ تصدع العالم."

الأب يعثر على أطفاله

"ذات يوم عثرنا على أبينا". فرت خادمة من مطبخ الملجأ في ربيع 1947 عبرت الحدود إلى بلدة هولشتاين إلى المنطقة الإنجليزية، وبلغت مخيم اللاجئين في بلدة باد زيجبرج. وهناك كان يقيم الأب منذ إطلاق سراحه من الأسر الإنجليزي. كان قد علّق ورقة مكتوب عليها: أبحث عن زوجتي وأولادي. رأت الخادمة الورقة وأخبرته: "أولادك في الملجأ. ولا يعرفون شيئًا عن أمهم."

أرسل الأب النقود والأوراق إلى كريفيتس. بعد ثمانية أشهر تسنى للإخوة مغادرة الملجأ. كان عليهم السفر عبر بلدة فريدلاند. إلا أن السوفيت احتجزوهم لمدة أسبوعين في بلدة إيلزنبورج في منطقة جبال الهارتس.

© 2016 Litrix.de

"قالوا أن الأوراق غير مضبوطة. كان علينا أن ننتظر حتى يبعث لنا أبونا بأوراق جديدة ونقود. بعد أن وصلنا بلدة فريدلاند تم تعقيمنا وحصلنا على تذاكر ووُضعنا في القطار المتجه إلى باد زيجبرج.

نصل إلى المخيم ونقول من نحن. "أجل أبوكم حكى لنا كل شيء وأمكم أتت أيضًا." ذلك أنه في الوقت الذي احتجزنا فيه الروس في إيلزنبورج سلم الروس الأم على الحدود في مدينة لوبك، فذهبت إلى مخيم باد زيجبرج أيضًا."

(في الصورة: أورزولا هيلر أثناء المعمودية)

مصير الأم

"عندما أتى الروس كانت أمي في مدينة كولبرج. مرت بتجربة مريرة. في البداية مات ابناها، ثم فقدتنا. خسرت أطفالها الخمسة. بعد الاستيلاء على كولبرج تم اغتصابها أكثر من مرة بطريقة بشعة. فقدت الرغبة في الحياة وحاولت الانتحار، ولكن جنديات روسيات عثرن عليها وأنقذنها. كن يتحدثن القليل من الألمانية، تعاطفن معها لأنها فقدت كل أطفالها، واصطحبنها لتعمل خادمة لديهن. كانت الجنديات تعملن فيما كان يسمى بوحدة قيادة متحركة. قامت أمي لهن بأعمال الطهي والكي والتنظيف. أدت أعمالها بصورة جيدة جدًّا حتى أن الملابس العسكرية كانت تبرق وتلمع. أمي كانت تعيش حياة طيبة عند الروسيات. فقد راعينها واعتنين بها. أخذنها إلى السونا والكوافير. ولأنها أدت عملها بصورة جيدة اصطحبنها إلى الحدود وزودنها بالشيء الكثير: ملأن حقيبة مصنوعة من خشب الأبلكاج، بل ووضعن فيها فرش سرير. آنذاك كان ذلك ذا قيمة كبيرة. حملن لها كل شيء حتى الحدود. لم يكن معها أوراق لذا أتت إلى مخيم باد زيجبرج ليتم تسجيل بياناتها، فقابلت أبي هناك."

لقاء الأبوين

نُقل الأطفال بعد وصلوهم باد زيجبرج مباشرة إلى الأبوين. كانا يقفان على الباب في انتظارهم.

"كان أبي في الخلفية. لم أر إلا أمي. كانت تقف على الباب ولم تقل إلا: "هيا ادخلوا" لم تقل شيئًا آخر. ففكرت: هل فعلت شيئًا خطأ؟ هل كان من الأفضل أن نموت؟ فتدهورت حالتي النفسية مرة أخرى ولم أعد أريد الحياة.

أمي كانت مصابة بصدمات نفسية لا يمكن لأحد أن يتخيلها. اعتنت بنا في السنوات التالية ولكن لم أشعر بها كأم. كانت محطمة. آنذاك لم أفهمها، ولكني لم أكرهها، كنت ضعيفة ومنهكة.

عندما وصلنا كنت في الرابعة عشر من عمري وكان وزني 27 كيلو. لذا نُقلت إلى مصحة علاجية على بحر البلطيق. كنت نحيفة وقصيرة جدًّا، فقال الطبيب: ستموت هنا. أما مديرة المصحة فقد أحبتني، كنت طفلتها المدللة، وتعين علي أن آكل كثيرًا على قدر ما استطيع، غذتني وساعدتني على أن أستعيد قواي.

البداية الجديدة الصعبة

سرعان ما عدنا أربعة مرة أخرى فقد وُلدت الأخت الصغرى في ديسمبر/ كانون الأول 1947. فترة ما بعد الحرب كانت فترة عصيبة جدًّا على الأسرة. كانت شديدة الفقر. لم يجد الأب عملًا. "حصلت على معونة

© 2016 Litrix.de

تربية حتى يتسنى لي العودة للمدرسة مرة أخرى. دفع والدي بها إيجار شقتنا الصغيرة، وإلا كنا سنسكن مرة أخرى في مأوى عمومي."

كان لدى اللاجئين مشكلة أخرى كبيرة. لم يكن مرحب بهم من قبل السكان المحليين. "كان أمرًا فظيعًا لم يعرفوا ما ممرنا به وكان يصحيون فينا: أيها البولنديون الملعنون، ماذا تريدون هنا؟ امضوا إلى حيث أتيتم!"

رغم أن أورزولا تغيبت على المدرسة لمدة سنتين كانت تلميذة جيدة. ولكن تعين عليها مغادرة المدرسة بعد الحصول على الشهادة المتوسطة لتتعلم مهنة وتكسب مالًا لمساعدة أسرتها، لأن أبيها كان لا يزال بلا عمل.

"كان جيشًا من العاطلين. في عام 1954 جرت عملية إعادة توطين مرة أخرى لأن ولاية شليسفيج هولشتاين كانت ممتلئة باللاجئين. قالت أمي: حتى يحصل أبي على عمل في المصنع سننتقل إلى نوردراين فستفالن. بقيت وحدي في باد زيجبرج. كنت في الواحد والعشرين من عمري. وكنت أستعد لأداء الامتحانات وأرغب في اتمام تدريبي المهني. وإذا ذهبت إلى مكان آخر كان علي أن أبدأ من جديد. هكذا تشتت شمل أسرتنا مرة أخرى. كانت أوقات عصيبة."

© 2016 Litrix.de